مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية ISSN :2353 0499
المجلد5 ، العدد13، (سبتمبر 2018) EISSN :2602 -5264

من فلسفة الرفض لمنطق العقل الأداتي نحو فلسفة جمالية عند هربرت ماركيوز

الأستاذة : جعروم ذهبية
جامعة أبو القاسم سعد الله –الجزائر 2-

الملخص:

إننا نهدف من خلال هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على أحد المباحث الأساسية في مجال الفلسفة النقدية المعاصرة التي يمثلها أكبر مؤسسي النظرية النقدية للبحوث الاجتماعية في معهد فرنكفورت .والمقصود هنا من فكرة النقد هو الرفض لكل ماهو سلبي في الحضارة الصناعية الأكثر تقدما التي ساد فيها طغيان العقل الأداتي الذي حوّل الإنسان على كائن فاقد لأبعاده

إنّ الهدف الذي يسعى إليه الفيلسوف الألماني هربرت ماركيوز هو البحث عن السبل التي بإمكانها أن تكون عاملا فعالا لاسترجاع الإنسان شخصيته الضائعة في زمن ما بعد الحداثة ، واللجوء إلى الفن كوسيلة لاسترجاع القيم الأخلاقية الضائعة التي أغرقت هذا الكائن في اللاوعي بمخاطر ما أفرزته التقنية الأداتية ، وللخروج من هذه الأزمة جعل ماركيوز الفن والجمال الملاذ الوحيد الذي به يسترجع ظالته المفقودة في هذا العالم .

Summary

In this study we aim to shed lighth on the basic research in the field of contemporary monetary philosophy,which is represented by the founder of the critical theory of social research at the Frankfurt institute.what is meant by us in the face of criticism is to reject all that is negative in the more advanced industrial civilization in which the tyranny of the creative mind prevailed.the aim of the philosopher Herbert Marcuse is to look for ways that can be an effective factor to restore mans lost personality in postmodernisme.to resort to art and beauty as a means to restore lost moral values,which unconsciously overwhelmed him with the dangers of the creative technology.

إذا رجعنا إلى تاريخ الفكر الفلسفي ونتوقف عند كل محطة من محطات تقدم ورقي الفكر البشري نجد هناك ما يسمى" بفلسفة الرفض " La philosopie du refus التي تتجسد بصور متعددة وبأشكال مختلفة في طبيعة ونمط تلك المجتمعات السائدة ،سواء بطريقة مباشرة المتمثلة في تلك الحروب والصّراعات القائمة بين أطراف ترفض الولاء لمبادئ معينة نتيجة التباين والاختلاف في الأهداف والمصالح ،أما الغير مباشرة يمكن إدراجها انطلاقا من نمط التفكير السّائد في أثينا القديمة التي طغى عليها الطابع السفسطائي الذي واجهه سقراط بالرفض العظيم le grand refus، وامتدت جذور هذا الرفض إلى الفلسفة الغربية نتيجة نضج الوعي لما آلت إليه الأوضاع التي لا ترتقي إلى مستوى الإنسان والإنسانية ، ونتيجة عدم التيقن من نتائج العلوم وغياب الموضوعية ، والتعصب للأفكار والنظريات العلمية و الفكرية ، من خلال السيطرة والقمع الذي مارسه رجال الكنيسة لطوال السنين . وهذا الرفض بقي مستمرا إلى غاية العصور اللّاحقة والتي تجسد بصورة بارزة وبدون ريب في العصر الحديث، حيث اقترن عنوانه غالبا بالفيلسوف الفرنسي " غاستون باشلار" Gaston bachelard(1962/1884) الذي أقر بإحداث قطيعة معرفية و إبستمولوجية مع المراحل الثلاث لتطور الفكر البشري التي تحدث عنها أوغست كونت في المقام الأول وبالمعارف الأخرى لتشييد نظريات فلسفية علمية محضة موضوعية ، ضف إلى ذلك رينيه ديكارت René descartes(1650/1596) الذي رفض الاستمرار في نيل المعرفة دون إخضاعها للشك المنهجي، وقد تكونت لديه هذه القناعة بعد أن يئس من نجاعة العلوم والمعارف التي تلقاها في مدرسة لافليش خاصة دروس المنطق الصوري التي تُقدم في قوالب جاهزة تتنافى مع الميول نحو التجديد والابتكار عند الانسان خلال القرون الوسطى ، ليحاول وضعها جانبا ويفتح بذلك مجالا واسعا للرفض في الفكر الفلسفي الحديث ،إذ توالت موجات النقد والرفض بصورة واسعة ومستمرة في أوربا متجلية بصورة جدّ بارزة في فلسفة إيمانويل كانط Emmanuel kant (1804/1724) الذي انتبه إلى ضرورة إخضاع العقل البشري للنقد والتمحيص ، وتبيان حدود استخداماته المشروعة من حدوده غير المشروعة ، وضرورة امتحان قدراته المعرفية وفحصها قبل استخدامه كأداة للحصول على المعرفة ، وسار في نفس السّياق كل من ماركس وهيجل وآخرون إلى رفض ما هو قائم واستبداله بقيم متعالية ، وبالفعل استمر الوضع قائما ، فكل

مرحلة فكرية تولد إلا وعملت على استبعاد ما هو سلبي ، فالحداثة الغربية كرست جهودها على فكرة التغيير الأنجع والإيمان بمبدأ الاختلاف ، كما لا تؤمن باليقين العلمي للمبادئ والأسس الموضوعية التي شيدت عليها العلوم ،نظرا لذلك التحول المعيشي الذي أحرزته الحضارة الغربية على جميع مستويات العيش من الجانب الاجتماعي والثقافي والفكري ، مما يستدعي ضرورة إعادة النظر في السّلوكات والمعطيات التي تحكمها ،فلم تعد القوة والعنف كما عبر عنها فوكو Michel foucault (1984/1926) في كتابه "السّلطة والعقاب" مصدرا لحل الأزمات ، بل القوة في الوسائل الرّمزية من الإعلام والحوار والتواصل في نظر يورجن هابرماس Jurgen Habermas والتربية والقيم الأخلاقية السامية كما عبر عنها هانس يوناس Hans jonas.في كتابه " مبدأ المسؤولية " le principe responsabilité

فالتطور الجديد الذي أحرزته المجتمعات البشرية يتطلب الوقوف عند الآليات التي تحرك قوى هذه المجتمعات وإدراك لعلاقة المعرفة بالقوى الاجتماعية ، وهذا ما شهده عصر ما بعد الحداثة من موجة عارمة من النقد ورفض ما يتنافى مع الحياة السعيدة للإنسان والإنسانية جمعاء ، هذه القضية احتضنها بصدر رحب روّاد المدرسة النقدية لمدرسة فرانكفورت، التي أعلن مفكريها الرفض المطلق للفكرة الماركسية الرئيسية عن الطبقة العاملة كقوة ثورية في المجتمع الرأسمالي ، وتطورت الفكرة –النقد- بحماس من طرف الجيل الثاني للمدرسة ،وعلى صدارتها يورغن هابرماس، الممثل الأكبر للحداثة الغربية ، الذي سعى إلى تأسيس ابستمولوجية نقدية لأشكال المعرفة من أجل تحديد مجالات كل نوع من العلوم . هؤلاء أخذوا على عاتقهم مهمة صياغة نظرية المجتمع الجديد قصد الدفع نحو التحرر من الأوضاع المأساوية التي آلت إليها إنسانية الإنسان المعاصر ، ويعد هربرت ماركيوزHerbert marcuse(1889-1979م) من الذين توغلوا إلى عمق الحضارة المادية الغربية ليكشف فيها تلك التناقضات والصراعات التي أفرزتها التقنية والعلم، فالتكنولوجيا نفسها مارست التسلط على الطبيعة والإنسان بطريقة منهجية علمية مقصودة ،مما دفع بهم إلى توجيه اهتماماتهم إلى ممارسة النقد والرفض الأعظم لهذه الظروف والحياة التي تسيطر عليها العقلانية الأداتية التي جعلت من الفرد كائنا مغتربا عن جميع جوانب حياته ، فاقدا لكل جوانب حياته ، بل اكتفى بالبعد الواحد وهو بعد الاستهلاك المفرط لآخر مستجدات التكنولوجيا

المعاصرة ، فعوضا أن تحقق له هذه الأخيرة الحياة السعيدة والمسالمة ، كونه قطع شوطا كبيرا منذ مساره التاريخي في غزو كل ما هو موجود بغية امتلاكه والسيطرة عليه بإرادته ، وبالفعل أصبح بفضل التكنولوجيا قادرا على تغيير كل شيء في حياته وعمل على تأنيس الطبيعة وتسخيرها لخدمته . ولكن من جراء الاستهلاك المفرط للتكنولوجيا بدأ يفقد ذاته نتيجة توصله إلى تحقيق الحضارة المادية التي أراد أن يشيدها ، كما بدأ يخسر نفسه حينما توصل إلى قتل نفسه وكبت إرادته بحرية ما صنعه لأنه مزج بين قيم ومعايير الذات الإنسانية وبين الأشياء المادية التي أنجزتها الحضارة المعاصرة ، حتى أصبحت علاقته بحضارته يحكمها مبدأ واحد وهو مبدأ الاستهلاك، وغياب بعد النقد والرفض والدعوة إلى التغير وهذا ما أشار إليه ماركيوز في كتابه الشهير" الإنسان ذو البعد الواحد" نتيجة الاغتراب الشامل الذي اجتاح جل جوانب حياته ،بدافع عامل الوفرة ، الذي اخترق فيه العلم والتقنية مالم يكن في حسبان المشروع الحضاري الذي سنته فلسفة الأنوار كونها انحرفت عن مبادئها وأسسها ، ولم تعد في وقتنا الحاضر تصبو نحو تحرر الإنسانية في ظل التطور الهائل للتكنولوجيا التي كرست صورا عديدة للسيطرة وما شابه ذلك ، هذه هي القضية المتعلقة بإنسان الحضارة الصناعية التي انتبه إليها فلاسفة النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت.

انطلاقا من التحليل الماركيوزي لوضع الشقاء والقهر والسيطرة ، الذي أفرزته الحضارة المتقدمة باسم التحرر نتيجة الوعي المزيف بالأوضاع القائمة في ظل الأنظمة الشمولية ، تستوقفنا إشكالية هامة سنطرحها لمعالجة الموضوع وهي كالتالي:

إذا كان إنسان المجتمع الغربي المعاصر، يعاني في ظل سيادة العقلانية الأداتية والتكنولوجية من تناقضات ، أفرزتها الحضارة المادية التي شيّدها بإرادته بغية السيطرة على الطبيعة ،والتي انعكست سلبا على كل جوانب حياته إلى أن جعلت منه كائنا مغتربا في عالم الوفرة ، فاقدا لصور النقد و الرفض والاحتجاج ، فما هو الملاذ الذي سيجد فيه هذا الكائن ظالته ؟ وإلى أي حد يمكن اللّجوء إلى البعد الفني و الجمالي كوسائل بديلة للتحرر عوضا من القوة والعنف ؟ و بتعبير آخر ما هي الصورة اليوتوبية التي رسمها ماركيوز كأداة كفيلة للتحرر من انزلاق العلم والتقنية عن وظيفتهما التي لأجلها وجدت ، وأملا في استرجاع الحقيقة الوجودية للإنسان المعاصر ؟

إن ماركيوز حين وصف الوضع القائم لإنسان المجتمع الأكثر تقدما الذي يئن تحت طغيان الأنظمة الشمولية و الضائع داخل أنساق التقنية وآلاتها ، تمكن من تشخيص العلة التي تجذرت في أعماق هذا الإنسان واصفا إياه بعبارة " كائن أبله ، ضحل في عواطفه وفقير في علاقاته الإنسانية ، دمية سوقية يسيطر عليه الخداع من ميلاده إلى وفاته "1 فهذا الكائن هو كائن استهلاكي بالدرجة الأولى لآخر مستجدات التكنولوجيا المعاصرة التي جعلته منحرفا عن القيم والمبادئ الأخلاقية التي كانت شعارا تمجدها بعض الفلسفات أبرزها الفلسفة النقدية الكانطية ،التي وضعت ثقتها الكاملة في العقل والإنسان المستنير الذي بإمكانه تحقيق ذاته وحريته بمفرده دون الخضوع للغير، غير أن ما سنّته فلسفة الأنوار في مشروعها الفلسفي قد بات بالفشل حين انقلبت المفاهيم إلى ضدها أي لما تحوّل العقل إلى نقيضه ,أي الاعقل ذلك تجسد في التوظيف الاّعقلاني لأشكال التكنولوجيا التي افرزت صورا متعددة لأنماط القمع والسيطرة ، فبعدما كان الانسان في عصور ما قبل العلم وبداياته يسعى نحو غزو الطبيعة والسيطرة عليها وامتلاكها أملا في تحقيق السعادة المادية وحياة الرفاهية بالرغم من عامل الندرة الذي يقف عبقة أمام بلوغ طموحاته. وهي نفس الفكرة التي سادت الفكر الفلسفي خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر خاصة مع فرانسيس بيكون(1561-1626م) Francis bacon و روني ديكارت اللّذان انصب اهتمامهما على ضرورة إبراز مكانة الذات الإنسانية الفاعلة والقادرة على التحكم في الأشياء عن طريق تكريس فكرة السيطرة على الطبيعة وتوجيهها نحو خدمة مصالحه نتيجة ايمانهما المطلق بالعلم كأداة كفيلة لفهم الطبيعة و القدرة على تحسين ظروف حياة البشرية 2.

بالفعل قد تحققت طموحاته ذلك أنه تمكن من تجاوز العقبات واختراق الحدود التي تواجه الوعي الذاتي للإنسان و إرادته ،إذ بفضل التقنية أصبح قادرا على تغيير كل شيء في حياته وعمل على تأنيس الطبيعة المادية وتسخيرها لخدمته. غير أن هذا الانسان الذي حقق نجاحا باهرا في تشييده للحضارة المادية والتي مكنته من امتلاك الطبيعة لصالحه، بدأ يفقد ذاته أمام منجزات هذه الحضارة ، حيث بدأ يخسر نفسه حينما توصل إلى قتل نفسه وكبت إرادته بحرية ما أنتجه بعد أن تم وضع العقل في مقابل المادة ، فهنا وقع في مأزق المزج بين قيم ومبادئ ومعايير الذات الإنسانية وتشيّؤ الحضارة مما أدى ذلك به إلى الذوبان في معطياتها وضرورة التعامل

معها والخضوع المحتوم لها.هذا المبدأ جعل الإنسان يعيش من غير التجانس مع منتجات عالمه الجديد-الحضارة الصناعية المتقدمة –التي ولّدت فيه الشعور بالخوف من مخاطر هذا التقدم الكفيل بتهديد مستقبل الجنس البشري بما في ذلك من القلق والتوتر والحيرة تجاه هذا الانفجار العلمي الذي ولّد فيه الشعور بالاغتراب الشامل في خضم هذه الحضارة .وهي المسألة الرئيسية التي حضيت باهتمام كبير في فلسفة ماركيوز والتي تناولها بصورة مغايرة تماما لسابقيه من الفلاسفة الذين استقى منهم هذه الفكرة –الاغتراب -التي تعني في كثير من الدراسات الانتماء إلى شخص آخر أو التعلق به أو كما يعبر كذلك على شخص يصبح بفعل ظروف خارجية اقتصادية أو دينية أو سياسية عبدا للأشياء ويعامل هو نفسه كشيء 3 نتيجة تمركز القوة بيد الطبقة المسيطرة التي أنتجت أزمات وحروبا واسعة النطاق لسبب إخضاع الفئات الضعيفة لخدمة الفئات القوية مما انجرّ عنه عدم الشعور بالأمان وضياع الانسان ، بمعنى هذا الأخير ضيّع شخصيته الأولى ، وفقد حريته واستقلاله الذاتي بتأثير الأسباب الاقتصادية أو الاجتماعية أو الدينية أو النفسية التي تحدث عنها من قبل كل من ماركس وفيورباخ وسيغموند فرويد. ونتيجة لهذا التأثير يصبح الانسان ملكا لغيره أو عبدا للأشياء المادية تتصرف السلطات الحاكمة في توجيه سلوكها كما تتصرف في السلع التجارية .4 أي لايختلف عن الأشياء المادية، فاقد لكل جوانب حياته مجرد من العواطف والتفكير والرفض ،إلى أن وصفه ماركيوز في كتابه الموسوم ب "الإنسان ذو البعد الواحد" L'homme unidimensionnel بـــ "كائن أبله ، ضحل في عواطفه وفقير في علاقاته الإنسانية ، دمية سوقية يسيطر عليه الخداع من ميلاده إلى وفاته" 5،نظرا لما يلبيها له النظام القائم من الحاجات المصطنعة الوهمية بتسخير الدعاية والإعلام ووسائل الاتصال الجماهيري، والهدف من ذلك تخذير الوعي الجماعي والسعي وراء خلق أفراد يستغنون عن الحرية بوهم الحرية ، وبالتالي المجتمع الصناعي المتقدم في نظر ماركيوز لم يكتف بتيزيّف حاجات الإنسان المادية فحسب بل امتد الأمر إلى أبعد من ذلك حين توصل إلى تزييف حاجاته الفكرية كون الفكر يمثل القوة التي تحرك العقل النقدي السالب ، بالإضافة الى اعتباره العدو الأكبر والمنافي لمبادئ مجتمع السيطرة الذي تحكمه قوة إيديولوجية توجهه نحو مسار مايجب أن يكون أي الإلتزام بالواقع القائم ونبذ المفاهيم الشمولية أو النقدية التي تلعب دورا خطيرا في

الكشف عن الأبعاد الأخرى لذلك الواقع .وهذه هي العقلانية الأداتية التي تعبر عن نفسها في الميل إلى الكمال التقني ، هذا من جهة ومن الجهة الثانية نجدها مضادة للتحرر ،كونها تبذل كل الجهود الممكنة لوضع حد لهذا الميل في المؤسسات القائمة وهذا هو التناقض الذي يلازم هذه الحضارة .وعبر عنها ماركيوز بالصفة اللاعقلانية لعقلانيتها6. فبقدر ما حقق العلم والتكنولوجيا للإنسان طموحاته ، بقدر ماسلبه روحه دون أن يأبه بحجيم الضرر الذي يحدّق به ،و بالطبيعة نفسها ، وقدعبّر عن ذلك إدغار موران Edgar Morin في قوله " هناك جهل جديد مرتبط بتطور العلم نفسه ، وهناك عمى جديد مرتبط بالاستعمال المنحط للعقل فتجدنا والحالة هذه ، أمام أخطر التهديدات التي تتربص بالبشرية ، والتي هي مرتبطة في أساسها بالتقدم الأعمى وغير المتحكم فيه للمعرفة ، كالأسلحة الحرارية والنووية ، والتلاعبات في كل الأنواع والخلل البيئي." وعلى هذا الأساس يتجلى التناقض القائم في جوهر هذا العلم الذي أحرزه العصر المعاصر ، تناقض بين الرغبة والغاية التي كان يتوق إليها الإنسان ، وبين الواقع المرير الذي أضحى يعيشه بفعل النتائج السلبية غير المتوقعة للعلم فبقدر ما منحت له سبل العيش السعيد بقدر ما سلبته روحه وخيّبت آماله، بفعل النتائج السلبية للممارسات العلمية التكنولوجية .

إن المجتمع المعاصر في نظر ماركيوز مجتمع قمعي لا يختلف في جوهره عن المجتمعات التي مرت بها البشرية عبر تاريخها ، والسيطرة لاتزال متأصلة في حقيقة وطبيعة المجتمع البشري منذ الفكر اليوناني القديم الذي تتجسد فيه فكرة السيطرة بصورة بارزة في المنطق الصوري الأرسطي إذ يقول : " ففي المنطق الصوري لا يميز الفكر أو يفرق بين مواضيعه ، فسواء كانت ذهنية ، أو مادية أو اجتماعية أو طبيعية ممدوحة لها أو تخضع لقانون التنظيم بوصفها إشارات أو رموز قابلة للاستبدال عن جوهرها العام ، وهذا التصميم هو الشرط الأول للقانون والنظام في المنطق كما في المجتمع إنه ضريبة الرقابة العامة ".7 ومن هنا يبدو أن طبيعة القهر السائد في العصور السابقة كان يمارس بطريقة مباشرة من طرف قوة طاغية أو حاكم مستبد ، يمكن الكشف عن طغيانه بكل بساطة ، في حين أن المجتمع المعاصر الصناعي ينفرد عن غيره في توظيف التكنولوجيا وسيلة من وسائل العنف اللامادي بدلا من العنف ذاته للوصول إلى السيطرة الكاملة على الأفراد، من خلال تلك العراقيل التي يضعها أمام التغيير الاجتماعي وغياب روح النقد من

أساسه ، حيث تمارس عن طريق خلق الاكتفاء والوفرة المادية ، فالعقل الأداتي الذي غير أشكال السيطرة السائدة من قبل خلق بذلك تبعيّة للنظام وأصبح كل شيء يمثل المادة دون الذات مثل البضائع فهذه السيطرة تلبست بصفة العقلانية التي تستمد قوتها من جهاز الإنتاج الذي يؤيد النضال في سبيل الوجود ، ولما كانت هذه السيطرة قائمة على العقل ومرتبطة بالرفاهية والازدهار اللّذين تتمتع بهما المجتمعات الصناعية المتقدمة ، فليس غريبا أن تصبح ولأول مرة في تاريخ البشرية مقبولة ، يدافع عنها ضحاياها أنفسهم ، ففي هذا السياق يقول ماركيوز :" إنّ السيطرة الاجتماعية في عصر التقدم التكنولوجي تتلبس طابعا عقلانيا يجرد سلفا كل احتجاج وكل معارضة من سلاحها ".8

يعني هذا أن ما أحرزته الحضارة الإنسانية من تحرر من ظلمات العبودية التقليدية تجد نفسها وقعت في مأزق من العبودية الجديدة التي تستبعد عنه كل أشكال المطالبة بالتغيير الاجتماعي للأوضاع السائدة .وذلك من خلال أشكال جديدة من الرقابة التي تفرضها ففي نظر ماركيوز العلم أصبح يستعمل للقضاء على حرية الانسان وخداع الأفراد وتظليلهم بما توفر لهم من الماديات وتحويل عقلهم إلى عقل أداتي ، ويقصد منه توجيه الفكر الغربي واخضاعه للنظام التقني الذي يوفر له الرّفاهية والوفرة المادية لذلك فإن :" العقلانية التكنولوجية لا تضع شرعية السيطرة موضع الاتهام ، وإنما تحميها فيصبح الأداء العقلي مواكبا لمجتمع كلي استبدادي"9 كما ارتبطت هذه السيطرة المتزايدة بالارتفاع في مستوى المعيشة أي بعامل الوفرة L'abondance،وسيلة لاضطهاد الإنسان واجبار الضحايا على قبول اغترابهم وتشيّئهم ، ويعاملون كأرقام وأشياء داخل مؤسسات وأجهزة الدولة بعد أن كان من قبل مرتبطا بالفقر والعجز عن تلبية الحاجات الضرورية أي كان هذا بفعل الندرة La rareté.

بهذا أصبحت التقنية أداة التحكم في الإنسان، وهي تلك القوة المحددة لحياة هذا المجتمع ومؤسساته داخل الأنظمة الشمولية التي أخضعت كل شيء للتنظيم والتقنين ، وأفرزت بذلك بنية اجتماعية جديدة استبدادية يتقبلها الأفراد دون أن يطالبوا بأي تغيير نوعي فأصبح منطقها هو منطق السيطرة داخل المؤسسات الاجتماعية والتي امتدت إلى أبعد من ذلك لتصبح سيطرة سياسية وقد عبّر عن ذلك ماركيوز بقوله : "...فلا وجود هناك لنظام عقلاني محض وصيرورة العقلانية هي

صيرورة سياسية ، وعن طريق التكنولوجيا على وجه التحديد يصبح الانسان والطبيعة موضوعين للتنظيم وقابلين لأن يحل احدهما محل الآخر وبعبارة أوضح أصبحت التكنولوجيا الناقل الأكبر للتشيؤ ، ذلك الذي بلغ أكمل أشكالها وأنجعها ."10الواضح من هذا الكلام أن سبب توجيه العلم على هذه الوتيرة ، هو ربطه بالجانب العملي التطبيقي الذي يمثل أكبر قوة للإنتاج في ظل مؤسسات المجتمع المتقدم صناعيا ويعبر عن ذلك هابرماس في قوله :" المعرفة العلمية والتقنية أصبحت تلعب دورا أساسيا في منح المشروعية للنظام الاجتماعي والسياسي للسيطرة التي تمارس داخل هذا النظام بعد ما كان في الماضي الدّين والميتافزيقا هما اللّذان يمنحان هذه المشروعية ويبرران السّيطرة ".11 فالتقدم التكنولوجي الذي أفرزته الثورة العلمية في نظر الفلسفة الوضعية التي يمثلها في هذا المجال سان سيمون Saint-simon (1760-1825 م) قد ساهم في التوافق بين الجانب النظري والتطبيقي ويتجلى ذلك في تقدم حياة الانسان ورقيها بعد الثورة الصناعية في أوربا فيقول ماركيوز أن :"تقدم الأحوال الاقتصادية يتحتم أن تتحول الفلسفة إلى نظرية اجتماعية وما هذه الأخيرة إلاّ اقتصاد سياسي أو علم الإنتاج ..."12 .من هذا نفهم أن الفلسفة الوضعية تبدو انها تدعي حياد المعرفة العلمية من خلال دعوتها إلى ضرورة اللجوء إلى التجربة وفهم الوقائع العلمية وتنظيمها لإدراك الحقيقة ، غير أن الواقع يثبت انحرافها عن مبادئها المنشودة ، حيث قامت بتكريس منطق السيطرة التي تحول البشر إلى مجرد أدوات وأشياء أفقدتهم حريتهم وسعادتهم ،ومهمتها اقتصرت على توجيه الإنسانية إلى الاندماج في ظل النظام القائم والذوبان فيه .ويؤكد دائما موقفه هذا بقوله أن "التقدم التقني يرسخ دعائم نظام كامل من السيطرة والتشيؤ ، وهذا النظام يوجه بدوره التقدم ويخلق أشكالا للحياة (السلطة)،تبدوا كأنها منسجمة مع نظام القوى المعارضة وتبطل بالتالي جدوى كل احتجاج باسم الآفاق التاريخية .....ولعل أغرب مهارات المجتمع الصناعي المتقدم تكمن في العراقيل التي يضعها أمام التغيير الاجتماعي ، واندماج القوى المعارضة هو نتيجة هذه الظاهرة وعلتها الأولى في آن واحد "13

يؤكد ماركيوز من هذا القول أن هذه التقنية التي أوجدها الانسان لخدمة أهدافه المرجوة منذ غابر الأزمان وتحقيق أشكال السعادة والحياة الكريمة في ظل توفر الشروط المواتية لذلك ، نجد قد تحولت إلى صور متعددة من الشقاء ،

أخطرها يتمثل في سلب حريته والرجوع به إلى العيش تحت وطأة الأنظمة الاستبدادية والتي حصرته في بعد واحد هو البعد الاستهلاكي المفرط لأشكال التكنولوجيا الذي يصاحبه غياب بعدي الرفض والنفي للوضع القائم متوهما بذلك النعيم الذي قدمه له النظام دون أن يدرك اغترابه الشامل في هذا العالم لهذا نعت بالإنسان ذو البعد الواحد عند ماركيوز .

من خلال هذا نفهم أن انسان العصر المعاصر قد حقق مستوى عال من الرفاهية التي لم يشهدها المجتمع الإنساني قبله ، بتلك الإنجازات العلمية المتطورة التي أسهمت بشكل واسع في ترقية حياته وترك بصماته في شتى أشكال المعرفة العلمية، المنجزة والاكتشافات المتوالية حول فهم الكون ومصير هذا الكائن في هذا العالم المجهول المملوء بالألغاز ،ما يدل على قدرة الانسان بذكائه وإرادته القوية على ترويض الطبيعة وتسخيرها لخدمته وانصار العقل على كل العقبات التي وقفت ضده منذ العصور الماضية ،غير أن هذا الانتصار الهائل جعله ضحية يدفع ضريبة ما حققه من نجاحات لأنها أغرته الحاجات المادية التي يوفرها له والتي انغرست في ذاته بدافع استمراريته في طلبها.

لكن هل يعنى أن هذا الكائن المغترب في عالم الوفرة والفاقد لكل أشكال الرفض والاحتجاج لا حول ولا قوة له أمام هذا الوضع ؟ أم بإمكانه تجاوز هذا الواقع المادي الآني إلى عالم أفضل يجد فيه ضالته المشودة وفيه يتمكن من استرجاع ابعاده المفقودة مادام هو سيد الموقف ؟

إن الانسان هو سيد القرار لاغيره ، هو من يقرّ برغبته وإرادته في تجاوز ما انعكس سلبا عليه من خلال التوظيف الاّعقلاني للمعرفة العلمية والتكنولوجية وما انجر عنها من نتائج لم تكن مماثلة للتوقعات التي كانت مرجوة منها .فلم لا يسعى إلى استرجاع كرامته والعيش في واقع متعال عن عالم المادة إلى عالم أسمى وأرقى من ذلك ، وهذا العالم يراه ماركيوز في العمل الفني الجمالي والخيال بما يحمله من قيم جمالية سامية بعيدة عن السيطرة والخداع ويعبر عن ذلك بقوله :" إن عالم الفن هو عالم مبدأ واقع مختلف مبدأ المغايرة ، وإنما بمغايرته يؤدي الفن وظيفة معرفية ، فهو يبلغ حقائق غير قابلة للتبليغ بأنه لغة أخرى " 14 . وبهذا المعنى يكون الفن البعد الوحيد الذي لا يخضع لمبدأ الواقع ، والمجال الذي يعبر فيه الفرد عن تطلعاته إلى حياة أفضل تغمرها الحرية والسعادة .وهذا مالم تقر به الجمالية

الماركسية التي ترى أن العمل الفني يتحدد بالوضع الطبيعي وبإيديولوجية الطبقة الصّاعدة التي تجاهلت هذه الخصوصية في العمل الفني واكتفت بتقبل الواقع الاجتماعي القائم .فالفن قوة نقدية تتجاوز الواقع وتضاهيه بكشف التناقضات القائمة في الواقع ورفع الستار عنها ، باعتبار أن الفن يمثل القوة والوسيلة الوحيدة التي يحتج من خلالها الانسان على الواقع وينقده نقدا جذريا إذ يقول ماركيوز في هذا السياق: " إن صفات الفن الجذرية ، أي وضع الواقع القائم موضع اتهام واستحضار صورة جميلة للتحرر ، ترتكز تحديدا على الأبعاد التي بها يتجاوز الفن تعيينه الاجتماعي وينعتق من عالم القول والسلوك المتواضع عليها "15وهذه هي الفكرة التي ينتقد بها ماركيوز الجمالية الماركسية التي قدمت تصورا لم يعد ممكنا أمام التطورات الحاصلة في المجتمعات المتقدمة حيث أدت إلى إحداث تغيير جذري على طبقة البروليتاريا التي تم إدماجها في معطيات هذه الحضارة الصناعية .وعليه فلا يجب تفسير العمل الفني انطلاقا من ذلك الصراع الطبقي والعلاقات الاجتماعية القائمة ،لأن شمولية العمل الفني لا يمكن ان يتأسس على رؤية طبقية ، بل يتأسس على مفهوم أشمل وهو مفهوم الإنسانية ، ويصنف ماركيوز الفنون التحررية إلى أنواع مختلفة ومنها نذكر على سبيل المثال :

الفن التجريدي : وهو يشمل جملة من الفنون التي يهرب بها الفنان من الواقع إلى الخيال الملموس والعيني المجرد مثل الشعر والرسم والخيال المجرد الذي به ينعزل عن الواقع لانه يمثل شكل من أشكال الرفض .

المسرح : في نظر ماركيوز هو الفن القادر على إيصال إمكانيات التحويل التجريدي للمحيط الطبيعي والتقني بشكل فني مؤثر من خلال تلك الجهود التي قام بها رجال المسرح الألمان في تطوير الفن المسرحي الذي وظف كأداة كفيلة لترجمة واقع ألمانيا إبان الحربين العالميتين ، حيث استطاعت أن تحقق بروزا قويا في هذا العمل الفني ، ويتجلى ذلك في مسرحيات "بروتولد بريخت "bertolt bretchخلال ترجمة الحرب الى عمل فني ملحمي والتي كان لها أثر كبير في المسرح الألماني والعالمي لا سيما في أوربا كونها تصويرا حيا للأحداث شكلا وصورة ،بعد أن حاول تصوير الإنسان السياسي الذي يحمل بذور الثورة على الواقع وتناقضاته فالأنسان الحقيقي هو الجدير بتجسيد الدراما في صورة واقعية ،وتحدي الأنظمة القمعية ، فكثيرا من الفنانين فضلوا عالم المسرح لأنه جدي يعبر عن الواقع ويبعث الحركة الثورية ، فحسب

بريخت يجب الاكتفاء بفهم الواقع فقط والتعبير عنه والعمل على تغييره على نحو ما يحقق التحرر لأن الانسان عنده ليس كائنا ساكنا لا يتغير ، بل قوة قابلة للتغيير وقادرة على التغيير معا فهو من خلال العروض المسرحية يدعو الجمهور إلى أن يستعمل ملكته العقلية أثناء المشاهدة ، إذ نجده يطلب من الممثلين عدم تقمص الشخصيات في أدوارهم التمثيلية ، بل يصر على عرض الأحداث من أجل جعل المتفرج يقظا مفتوح العيون ، يراقب بدقة ما يحدث أمامه على خشبة المسرح .، فهو لا يريد ن الجمهور أن يكون أداة منفعلة تتلاعب بها الإيحاءات والإيماءات ، يل يريد أن يكون قوة ناقدة تتسم بالنقد والتغيير .وعليه يرى بريخت أنّ :" الجمهور هو مصدر لمنتوج مخزون ، يلعب دورا أساسيا في بلورة وتطوير المسرح ، ولا يمكن للجمهور أن يستثمر القوى الكامنة فيه من خلال المشاهدة والتفكير ومن ثمة التغيير . فيكون بذلك تطوير الجمهور الذي يجعله عنصرا منتجا ، له بصيرة الناقد للأحداث لا المتفرج الغارق بالإيهام ."16 فالانسان كائن قابل للتغيير مهما اختلفت العصور ، تواقا نحو الانعتاق من أغلال العبودية والسيطرة التي كانت سائدة في المسرح الأرسطي ،فلا ينبغي للمتفرج أن يندمج في المسرحية ولا ينبغي أن يتعاطف مع الحالات الانفعالية للشخصيات ،ما يجعله ينسيه نفسه ويمنعه من التفكير في الفكرة التي تحملها أحداث المسرحية. فينبغي على المشاهد أن ينفعل مع الأحداث بهدف أن يحلل ويناقش ويغير وتبني مواقف بدورها تؤدي إلى خلق أفراد منتجين للعمل الفني عوضا من الاستهلاك الأعمى .

إن قيمة وأهمية الفن والعمل المسرحي الذي عرف ازدهارا واهتماما كبيرا في أوربا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر خاصة في إنجلترا وفرنسا مع بروز النجم ويليام شكسبير ، ومسرحيات بريخت في ألمانيا التي تهدف من خلال عروضها الى التحلي بالروح النقدية وتبني موقف الّرفض العظيم للواقع وللمسرح البورجوازي الذي يؤثر سلبيا على هذه المجتمعات المليئة بالتناقضات كونه يغطي الحقيقة عن المتفرج ويستر العيوب ويوهمه بأن الحقيقة هو ما يشاهده .هذا ما جعل ماركيوز يدعو إلى ضرورة اللّجوء إلى الفن المسرحي البريخي الذي كان الهدف منه هو خلق الوعي الثوري والحماس لدى الجماهير من أجل إحداث التغيير وفهم العلاقات والقوانين التي تحكم المجتمع قصد الدفع به نحو الأفضل ، لما له من أهداف تعليمية وتربوية تجعل من المتفرج كائنا حيا بحسّه النقدي وقدرته على ابراز دوره

الفعال في اصدار الأحكام وتنمية الملكة النقدية عنده .على خلاف المسرح البورجوازي الذي يكتفي بخدمة مصالحه المادية .

الشعر: يعتبر الشعر من الفنون الأدبية القديمة التي عرفت منذ العصر اليوناني القديم المتجسد بصورة مبهرة وبخيال بارع في إلياذة هوميروس ، أين الشاعر آنذاك يمجد البطولات و الحروب بلغة يكتنفها الجمال اللفظي ورونقة المعنى الذي يصب كله في قالب إيقاع موسيقي يترجم الأحاسيس الصّادقة المعبرة عن الانفعال العميق للإنسان ، وليس مجرد كلاما عاديا وظيفته ابرز القيمة الجمالية للنص مما يضاف إليه من الصور البيانية والبديعية التي تتعالى عن العالم الواقعي إلى عالم الخيال اللامحدود، على عكس اللّغة العادية التي هي أداة ووسيلة التواصل التعبير عن الخطابات الدينية والسياسية التي يفرضها النّظام .

ومن هنا يمكن القول أن خلاصة الفن تبقى صدى التجربة الطبيعية الحسية المتحررة من معطيات الاستغلال نظريا ، فبكونه وسيلة للنقد والاحتجاج على الواقع المتشيئ ومؤسساته القمعية خاصة السياسية ،فإنه يفتح آفاقا جديدة لتحويل الإنسان من عالم القمع والسيطرة إلى كائن متمتع بذاتية تحررية تتجسد في وجوده وعلاقاته بالأفراد داخل المجتمع .ما يؤكد دور البعد الفني والجمالي والخيالي في إحداث قطيعة بين ماهو كائن وما سيكون، والتركيز على الذاتية بالدّرجة الأولى وتحرره من العقلانية الأداتية عن طريق توظيفها توظيفا عقلانيا. عكس ما ذهبت إليه الجمالية الماركسية الأرثوذكسية التي تجعل من العمل الفني الأصيل مقوقعا في إطار طبقة البروليتاريا ، والفنان وظيفته مرتبطة بالدفاع عن مصالح هذه الطبقة وتأييد نضالها ،وعليه العمل الفني الذي ينسب إلى فنان غير قادر على تصوير الوضع القائم والتعبير عن رفضه في صورة فنية جمالية يبقى ذلك مجرد التزام سياسي يغذي أفكار الحزب أو الطبقة التي تحتويه ،فما نجده على سبيل المثال في مسرحيات الفيلسوف والكاتب والأديب الفرنسي "جون بول سارتر "دليلا حيّا على مساهمة الفن وقدرته على تغير وعي الإنسان بعالمه وتحرره منه، وهذا التغير بالطبع لا يحدث مباشرة ، بل يكون بعد نضال مرير من النّخب التي لم تعد تحتمل الألم الذي تمارسه الطبقات السياسية القمعية .

إن اللّجوء إلى البعد الفني والجمالي في نظر ماركيوز لما له من دور فعال في تحقيق التحرر والانعتاق من أشكال السيطرة والقمع ،وما يحمله من البعد الإنساني المتضمن صورا خالية من القهر، حاملا بعدا ثوريا بإمكانه أن يحقق حضارة جديدة متكاملة الأبعاد تقوم على الحب والجمال الذي يسمو بالقيم الإنسانية ويعيد الاعتبار للذات المتطلعة نحو السّعادة والحرية ،تحل محل حضارة البعد الواحد والتي يلخصها في عبارة الحياة المسالمة léxistence pacifiée أو الراضية .17وهذا ما تحدث عنه في كتابه المسوم " نهاية اليوتوبيا "La fin de l utopie أين يؤكد أن بإمكان الإنسان الانتقال إلى المجتمع الجديد الذي تسوده القيم الجديدة باستخدام التكنولوجيا المتقدمة في تكريس السلام ومراعاة مطالب الانسان التي تتسم بالبساطة بعيدا عن روح الهدم والتخريب مع ضرورة وأهمية الاستمتاع بالوقت الحر الذي يمنح له الفرصة لاستعادة ذاته ويحقق التوافق مع نفسه ومع غيره عندما يصبح النشاط الذي يمارسه في هذا الوقت الحر هو الاستمتاع بالقيم الجمالية التي هي الشرط الأساسي لاكتمال شخصية الانسان وهو الغاية على حين أن نشاطه في العمل يصبح مجرد وسيلة .18

وهكذا يبدو ماركيوز من المفكرين والفلاسفة الذين أبدوا أمله الكبير في استرجاع الانسان المعاصر لذاته الضالة في عالم شيّده بنفسه ، وذلك حين لفت انتباهه إلى أهمية وقيمة الجمال والحب والعاطفة في سد باب السيطرة والتكنولوجيا التي ابتلعته بكل جوانبه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وهيمنت على أبعاده الخارجية والداخلية حيث امتدت جذور السيطرة حتى إلى ذلك الجانب المقدس من حياته العاطفية والجنسية .فالقيم الفنية الجمالية بمثابة السلاح الذي يتم به مقاومة الواقع واحداث التغيير الفعلي والرفض الأكبر للوضع القائم .لكن ما يمكن قوله أن ماركيوز يبدوا أنه قد بالغ في تمجيد الفن والجمال لما أسند إليهما مهمة التغيير ،غير أن ذلك يبقى مجرد صورة يوتوبية ، وحلم بمستقبل جديد للإنسانية ،كما أن التاريخ الذي شهده إنسان الحضارة الأوربية وتدفق الإنتاج الفكري والفني الذي زخرت به أوربا في العصر الحديث أي إبان القرن التاسع عشر والعشرين من مسرح وموسيقى ورواية وشعر وفنون تشكيلية ....الخ لم تساهم في الحد من سوء استعمال التقنية التي ظلت تهدد الوجود الإنساني ،هذا ما يوحي إلى أن ماركيوز اختزل سعادة البشرية فقط في تلك القيم التي تجلب له أكبر متعة جمالية

وإيروسية و تجاهل وجود قيم أخرى تسمو عن الفن وهي القيم الأخلاقية التي نادى بها إيمانويل كانط منذ حوالي قرن من الزمن ، والتي أعاد بلورتها وصياغتها في ثوب جديد كذلك الفيلسوف الألماني " هانس يوناسHans jonas (1933/1903)الذي يرى أن الأخلاق الكلاسيكية التي يدعو إليها كانط قد تجاوزتها معطيات الحضارة الراهنة التي تطرح مشكلات وأزمات يستعصي حلها بتلك القيم السائدة من قبل وحدها ،لأن الحياة في ديناميكية متطورة ومستمرة .وعليه سن جملة من القواعد الأخلاقية الجديدة المناهضة للقواعد الأخلاقية الكانطية في كتابه الشهير المعنون ب " مبدأ المسؤلية " le principe responsabilité الذي يدعو من خلاله إلى التّحلي بالأخلاق الإيكولوجية والتحلي بالمسؤولية الجماعية تجاه مايهدد الوجود الإنساني وما يساهم في تخريب الطبيعة معا من جراء التوظيف اللاعقلاني للتقنية .وهذا ما يوحي إلى أنّ هانس يوناس وقف موقفا مؤيدا لماركيوز حينما دعّم القيم الجمالية بالقيم الأخلاقية الجديدة التي بإمكانها أن تساهم في الحد من السيّطرة والقضاء على التشيؤ والاغتراب الشامل الذي هو صانعه وليس قدر محتوم .وقد عبر عن هذا السياق الفيلسوف الألماني " مارتن هيدغر"في موقفه من التقنية المعاصرة أنها "وسيلة من اجل تحقيق غايات تجعل الانسان في علاقة صائبة مع التقنية ، إذا ما استعملت استعمالا جيدا وتوجيها توجيها عقلانيا والبحث عن كيفية التحكم فيها أكثر فأكثر ، بمعنى أننا نريد أن نصبح سادة عليها "21

وفي الأخير يمكن القول أن إهتمام ماركيوز بالقيم الفنية والجمالية كأداة كفيلة للتحرر الإنساني وتجاوز الواقع من العقلانية الأداتية يبقى أمرا صعبا للتحقيق وإن لم يكن بالمستحيل ،كون هذا الانسان الذي يبحث عن أطر جديدة لاستعادة ذاتيته المسلوبة لم ينسلخ في علاقاته عن الحياة السياسية والإجتماعية والتاريخية التي تعبر عن الوضع الذي يعيشه ،ولما كان الفن يحمل الحقيقة ويتميز بالعبق كما عبر عنه "فلتر بنيامين "(1940/1892) أصبح في زمن الاستنساخ فاقدا للعبقية حيث ساهمت وسائل الاستنساخ المتطورة في الإقلال من قيمة ومكانة الأعمال الفنية التي فقدت أصالتها .